النظرية الحجاجية وبعدها الإقناعي في فكر حازم القرطاجنّي من خلال كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء

The dimensions of the pilgrim theory and its manifestations in the thought of Hazem Al-Qartajani through his book The Platform for The Language and the Saddle of Writers

ط د مسعودة بوترعة[1،*]، د محمد الصالح بوعافية[2]

[1] جامعة ورقلة، (الجزائر)، messaoudaboutera75@gmail.com

[2] جامعة ورقلة، (الجزائر)، Bouafia1402@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/03/01 **تاريخ المراجعة**: 2022/07/01 **تاريخ النشر**: 2022/09/30

ملخص:

تسعى هذه الدّراسة إلى البحث عن ملامح النّظرية الحجاجية المعاصرة وبعدها الإقناعي في تراثنا العربي وخاصة النّقدي منه، وذلك من خلال فكر حازم القرطاجني، في كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء"؛ إذ وجدنا فيه جهودًا لا يستهان بها ركز فيها على عملية التأثير والإقناع، وتطرق لبعض مفاهيم الحجاج من خلال حديثه عن مفهوم الشعر، وحديثه عن البلاغة وما تُبنى عليه من خيال وإقناع.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الإقناع، التأثير، تراثنا العربي، الاستدلال.

Abstract:

This study seeks to seek the concepts and dimensions of contemporary pilgrim theory and its various mechanisms, in our Arab heritage, especially critical of it, through the thought of Hazem Al-Qartjani, in his book "The Platform of The Language and the Mirage of Writers", where we found significant efforts in which he focused on the process of influence and persuasion, and touched on some concepts of pilgrims through his talk about the concept of poetry, his talk about rhetoric and the imagination and persuasion built on it.

***Key words**: Agumentatio، Persuasion، Influence،Our Arab heritage، Reasoning.*

تقديم:

تعد نظرية الحجاج من النظريات التي نشأت في أحضان الفكر الفلسفي؛ حيث وجدت مع نظرية أرسطو في المنطق، فبُنيت على أسلوب الخطابة والمنطق، ففي أواخر القرن العشرين تفرعت النظرية إلى اتجاهات ثلاثة "اتجاه فلسفي منطقي، اتجاه لغوي، اتجاه بلاغي"، على يد مجموعة من العلماء من ذوي الاتجاهات اللسانية والنقدية المختلفة، فشهدت على إثرها نهضة نوعية واستفاقةً استعادت من خلالها مكانتها ضمن ميادين النقد وتحليل الخطاب بمختلف أنواعه.

* المؤلف المراسل:

وقد كان لهذه النظرية جذور في تراثنا العربي، من خلال مؤلفاتهم العديدة، ومن أشهرها في هذا المجال كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء " لـ "حازم القرطاجني"، هذا الكتاب الذي يعدّ عصارة فكر نهل وارتوى من مختلف مشارب الحضارتين، الحضارة الإغريقية، والحضارة العربية الإسلامية، حيث انطلق حازم القرطاجني فيه من الفكر الفلسفي لأرسطو ليصل إلى تنظير فكر نقدي عربي يتماشى والمنتوج الأدبي العربي؛ حيث تبلورت فيه بلاغتان، الأولى شعرية، والثانية حجاجية مبنية على الإقناع، مما جعل نظريته وما تحمله من آراء بلاغية ونقدية جاءت سابقة لزمانه، ولا تَقل أهمية عمّا تطرحه النّظريات الحديثة.

فكانت إشكالية الدراسة متمثلة في: ماهي ملامح النظرية الحجاجية في الفكر النقدي عند حازم القرطاجني من خلال كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"؟

وللإجابة عن هذه الاشكالية قمنا بالبحث عن جذور هذه النظرية الحجاجية الحديثة، وعن مواضع وجود ملامحها، وارهاصاتها وبعدها الإقناعي في كتاب حازم القرطاجني "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، بهدف الكشف عنها، من خلال الشروع في البحث عن ماهية الحجاج اللغوية والاصطلاحية، لأجل أن نستبين معالمه وأطره، ثمّ الحديث عن النظرية الحجاجية بين النظرة الغربية الفلسفية القديمة والنظرة الغربية الحديثة، ثمّ الحديث عن تمظهر النظرية الحجاجية وبعدها الإقناعي في فكر حازم القرطاجني من خلال كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

1- مفاهيم الحجاج:

1-1-المفهوم اللغوي :

جاء في لسان العرب في مادة "ح ج ج": " يقال حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُه أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ التي أَدْلَيْتُ بها... والحُجَّة البُرْهان وقيل الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصم وقال الأَزهري الحُجَّة الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة وهو رجل مِحْجاجٌ أَي جَدِلٌ والتَّحاجُّ التَّخاصُم وجمع الحُجَّةِ حُجَجٌ وحِجاجٌ.."[1]

وعرف الشريف الجرجاني الحجة فقال: " الحجة ما دُلّ به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد".[2]

كما ورد بمعنى القصد في معجم مقاييس اللغة: "ومن الباب المحجّة، وهي جادة الطريق.

قـال: أَلا أَبلِغا عَنّي حُرَيثاً رِسالَةً**** فَإِنَّكَ عَن قَصدِ المَحَجَّةِ أَنكَبُ

ويمكن أن تكون الحُجّة مشتقة من هذا؛ لأنّها تقصد(بضم التاء)، أو بها يقصد الحق المطلوب، يقال حاججت فلانا فحججته أي غلبته بالحجّة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع الحجج، والمصدر الحجاج[3].

وبما أن الحجاج هو مصدر للحجّة والحجّة مراد فيها الدليل، ومنه فالحجّة تستلزم مقدمات حتى يذعن بها الخصم، وعليه فمجال الحجاج هو التنازع والمغالبة في إطار التواصل والإقناع.

1-2-المفهوم الاصطلاحي:

أما اصطلاحا فقد صعب ضبطه، وذلك لتعدد مظاهره واستعمالاته ومرجعياته النظرية، فتنوعت مفاهيمه وتعددت تعاريفه فحده أحد المناطقة والفلاسفة "طه عبد الرحمن" في قوله: «أنّه كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحقّ له الاعتراض عليها»[4]؛ من كونه أنّه «لا مخاطب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة (المُدَّعي)، ولا مُخاطب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة(المُعترض)»[5]

أما من وجهة نظر البلاغيين الجدد وعلى رأسهم بيرلمانPerelman وتيتكا Tyteca فقد عرفاه عدة تعريفات أهمها قولهما: «أنّ موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[6]والمقصود بتقنيات الخطاب هي التقنيات البلاغية.

أمّا من وجهة نظر أهل الحجاج اللّغوي أوسكمبرJ-C.Anscombre، وديكروO.Ducrot، من خلال مؤلفهما المشترك" الحجاج في اللغة"، الحجاج عندهما:« أن يقدم المتكلم قولا ق1(أو مجموعة من الأقوال) موجهة إلى جعل المخاطَب يقبل قولا آخر ق2(أو مجموعة أقوال أخرى) سواءأكان ق2 صريحا أم ضمنيّا وهذا الحمل على قبول ق2 على أنّه نتيجة للحجة ق1 »[7]، ق1و ق2 هي عبارة عن حجج ونتائج؛ بحيث أنّ ق1يستدعي ظهور ق2، فالحجاج عندهما يكمن في اللغة، فهو عبارة عن متوالية قولية، خلافا لما هو عند بيرلمان و تيتكاه.

هذا ما بينه أبو بكر العزاوي وبتعبير حجاجي في قوله: «هو مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينهما أنماط مختلفة من العلائق، فالحجّة تستدعي الحجّة المؤيدة أو المضادة، والدّليل يفضي إلى النّتيجة، والنّتيجة تفضي إلى دليل آخر، وكلّ قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه»[8] وبعبارة أخرى «فإنّ الأقوال والجمل تقوم بينها علاقات منطقية ودلالية مثل علاقات الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والتعارض (فهي علائق حجاجية استدلالية)»[9].

يعني أنّ الحجاج عند اللغويين هو منظومة من العلاقات اللّغوية، أو سلسلة قولية تتضمن حججا لغوية ونتائجها.

وإذا أمعنا النظر في تعريفات الاتجاهات المختلفة نجد أنّ الحجاج هو الإقناع والتأثير والاستمالة. فهو يجمع بين التأثير النظري والتأثير السّلوكي، ويتطلب طرفين هما محور الحجاج وهما(المتكلم والسّامع) وهو خطاب ذو وظيفة إقناعية.

2- النظرية الحجاجية بين النظرة الغربية الفلسفية القديمة والنظرة الغربية الحديثة:

نظرية الحجاج هي نظرية موضوعها الأساس الحجاج، والحجاج ظاهرة فكرية ليست حديثة، بل لها جذور قديمة خاصة في الفكر اليوناني الفلسفي، ولا سيما الفكر الأرسطي الذي نظر للبلاغة نظرة حجاجية؛ إذ خصها بكتاب مشهور وهو (الريطوريقا/البلاغة).

فقد قام بتقسيم كتابه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تناول فيه مفهوم البلاغة وموضوعها ومنهاجها وعلاقتها بالجدل.

القسم الثاني: تناول فيه التأثير في الآخر.

القسم الثالث: تناول فيه صفات الأسلوب وآثاره الفنية والجمالية والحجاجية.[10]

فمن خلاله تناول الحجاج من زاويتين متقابلتين، من زاوية بلاغية، ومن زاوية جدلية، فمن الزاوية البلاغية ربط الحجاج بالجوانب المتعلقة بالإقناع، ومن الزاوية الجدلية عدّ الحجاج عملية تفكير تتم في بنية حوارية، وتنطلق من مقدمات؛ لتصل إلى نتائج ترتبط بها بالضرورة، فهاتان النظرتان المتقابلتان تتكاملان في التحديد الذي قدمه أرسطو لمفهوم الخطاب، إذ يبنيه انطلاقا من أنواع الحضور، ومن الرغبة في الإقناع، ويحدده في ثلاثة أنواع: النوع الاستشاري، النوع القضائي، النوع القيمي[11]. فالحجاج عنده موجه إلى جمهور خاص، في مقامات خاصة، فهو يتعدى التأثير النظري العقلي إلى التأثير العاطفي، وإلى إثارة المشاعر والانفعالات.[12] فقد فضل أرسطو البلاغة على المنطق لفاعليتها في المجتمع، بل جعلها أداة تطبيقية تتخلل المنطق والسياسة والأخلاق. فالبلاغة تسعى للإقناع بالحق عبر الجدل والاستدلال.[13]

ثم تطور الدرس الحجاجي في العصر الحديث عند الغرب، فتحول من ظاهرة فكرية فلسفية إلى نظرية يتقاسمها اتجاهان أساسيان وهما الاتجاه البلاغي، وعُرف بنظرية البلاغة الجديدة، ورائداها (بيرلمانPerelman وتيتكا Tyteca)حيث ألفا كتاب " مصنف في الحجاج : البلاغة الجديدة" ركزا فيه على إخراج الحجاج من الجدل والخطابة التي أرساها الفكر الفلسفي الأرسطي، ومن الاتهام بالمغالطة والمناورة والتلاعب بمشاعر الجمهور وبعقله، فدفعا بالحجاج إلى أن يمثل اتجاها ثالثا وهو المعقولية والحرية والحوار، بعيدا كلّ البعد عن العنف بجميع مظاهره.[14]

ومن أهم المباحث التي اهتم بها الباحثان مقدمات الحجاج ومنطلقاته التي يقبلها الجمهور، وينطلق منها الخطيب في استدلالاته، وهي تتمثل في الوقائع، الحقائق، والافتراضات، والقيم، وهرمية القيم، والمعاني أو المواضع.[15]

وأهم الإنجازات التي أنجزتها نظرية "البلاغة الجديدة" هي تحديد التقنيات الحجاجية للخطاب والمتمثلة في طريقي «الفصل Dissociation والوصل Liaison الحجاجيين (لا النحويين طبعا) وهو ما عقد له المؤلفان قسما بحاله هو القسم الثالث، وهو أهم أقسام الكتاب على الاطلاق»[16].

أمّا الاتجاه الثاني وهو الاتجاه اللغوي وعُرف بنظرية "الحجاج في اللغة" أو "التداولية المدمجة"، ورائداها "أزفالد ديكرو O.Ducrot " و "أوسكمبرJ-C.Anscombre" حيث انطلقت هذه النظرية من فكرة «أننا نتكلم عامة بقصد التأثير» وهذه الفكرة تمنح اللغة الوظيفة الحجاجية، فمن خلالها اهتمت النظرية بدراسة تقنيات الخطاب اللغوية ودورها في الحجاج والإقناع.[17] وللحجاج معنيان فرق بهما منظرا هذه النظرية بين نوعي الحجاج:[18]

الحجاج بالمعنى العادي؛ والمعنى الفني او الاصطلاحي وهو موضع اهتمام التداولية المدمجة

المعنى العادي: وهو طريقة عرض الحجج وتقديمها بهدف التأثير ، فيصبح بذلك الخطاب ناجعا فعّالا، فهو معيار أولي لتحقيق الصفة الحجاجية.

المعنى الفني: أي الحجاج بالمعنى الاصطلاحي، الذي هو محور اهتمام نظرية التداولية المدمجة، وهو «صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب، والمدرجة في اللسان، ضمن المحتويات الدلالية. والخاصية الأساس للعلاقات الحجاجية ان تكون درجية (Scalaire)أو قابلة للقياس بالدرجات، أي أن تكون واصلة بين السلالم»[19]. وبالتالي فالحجاج من منظور هذه النظرية هو عملية استدلالية خطابية.

ومن وإنجازات النظرية النهوض بمفاهيم أهمها: «العلاقة الحجاجية، والمواضع الحجاجية، والقسم الحجاجي، والقوة الحجاجية، والسلم الحجاجي، والاتجاه الحجاجي، والقرائن الحجاجية.»[20]

تُعدّ نظرية البلاغة الجديدة، ونظرية الحجاج اللغوي من أهم النظريات الحديثة التي اهتمت بالحجاج وطورته.

3- ملامح النظرية الحجاجية في فكر حازم القرطاجني من خلال كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء":

لقد خضع المتن اللغوي العربي القديم لعمليات تحليلية مختلفة، فعالج البلاغيون بيان معالم الجمال فيه، انطلاقا من مقاييس نقدية ولغوية، فأفرز الانشغال بهذا المتن ظهور عدد من المصنفات في علوم شتى، ومنها كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء؛ إذ يُعدّ صاحبه أبو الحسن حازم القرطاجني (684هـ) من النقاد الأفذاذ الذين تركوا بصمة نوعية أضافت إلى التراث العربي إسهامات عدّة في مجال البلاغة والنقد واللغة عموما. ومن أهم القضايا التي تناولها فيه :

* قضية صناعة الشعر وكيفية إنتاجه وإرساله، وتلقيه، وإيهام القارئ بصدقه أو كذبه.

* قضية صناعة الأقاويل الخطابية، وإتقانها من خلال تحقيق بلاغة الإقناع وتمويه القارئ لتقبل الكلام على ما يرومه المرسل[21].

3-1 الشعر وبعده الإقناعي بين فكر حازم ونظرية الحجاج الحديثة:

استطاع القرطاجني من خلال قراءته لقوانين أرسطو، ومقارنته بين الشعر العربي وخصوصياته والشعر اليوناني وخصوصياته أن يصل إلى أنّ الشعر العربي يحتاج إلى اختراع قوانين مستخلصة منه تتماشى وخصوصياته، فنذر كتابه لهذه المهمة العظيمة، والذي يعدّ «تكميلا لعمل الحكماء الذين تناولوا موضوع "الشعرية"، وذلك من حيث نظره في الكليات في ضوء متن إضافي غني، وتخصيصا له من حيث توجيه القوانين البلاغية نحو ضبط الخصوصية الشعرية، لشعر أمة معينة، أي الشعر العربي»[22].

إذ حمل على عاتقه وضع قوانين خاصة بالشعر العربي، وما يتناسب معه، فأخذ يتأمل في النّص الشّعري من أجل تحديد ماهيته، وضبط مقوماته فاستعار من قوانين أرسطو إلا ما يخدم طبيعة الشّعر العربي، مما أقدره على تحديد مفهوم متكامل للشعر إذ يقول: «كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النّفس ما قصد تحبيبه إليها ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له ومحاكاة»[23]. وانطلاقا من تحديده لماهية الشعر يتجلى لنا البعد الإقناعي الذي يعدّ المحور الأساسي في نظرية الحجاج؛ إذ جعل من قصد (التحبيب)و(التكريه) محورا جوهريا في العملية الشعرية، فهي سبب لطلب الشّيء أو الهروب منه وذلك " حسب درجة الإقناع والاقتناع الحجاجيين خاصة،[24] بل جعل من حسن التخييل وسيلة من وسائل الإقناع.

وفي حديثه عن الأقاويل والمعاني المقنعة نوه القرطاجني بحجاجية الشعر في قوله: «أنّ التخييل هو قوام المعاني الشعرية والإقناع هو قوام المعاني الخطابية واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ إذا كان جهة الإلماع في المواضع، كما أن التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع وإنما سائغ لكليهما أن تستعمل يسيرًا فيها تتقوم به الأخرى، لأن الغرض في الصناعتين واحد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء

الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه، فكانت الصناعتان متآخيتين لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما، فلذلك ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه»[25] إذ ميز بين الشعر والخطابة من خلال البنية الأساسية المكونة لكل منهما، فالشعر بنيته الأساسية التخييل، والخطابة بنيتها الأساسية الإقناع، إلا أنّه يدعو للمزاوجة بين البنيتين في كل منهما، وهذا ما جسدته البلاغة الجديدة في كون الشعر والخطابة يقومان على «الاحتمال توهيما وترجيحا، التوهيم في التخييل والترجيح في التداول الحجاجي»[26]، فحازم رأى أنّ الامتزاج بين المعاني المقنعة والمخيلة يكون له تأثير أكبر في النفوس، ويكون أكثر تحقيقًا للغرض، وهو القبول والتأثير في النفوس بدفعها للاعتقاد والفعل، وما يؤكد به حجاجية الشعر المراوح بين التخييل والإقناع قوله: «القصد في التخييل والإقناع حمل النّفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده»[27]، وما يؤيد رأيه ما جاء به شايم بيرلمان - وهو أحد رواد النظرية الحجاجية البلاغية- حول الملامح الحجاجية الإقناعية في الشعر، إذ قال: «كيف يتصور الرومانسي التأثير في الآخر؟ فنظر إلى أنّه يتخلى عن الفعل الخطابي، العقلي فإنّه يعمد في الغالب إلى القوة. إنّه يفضل الخطابات التي تبعث الإيحاء فبدلا من النثر يعمد إلى الشعر، وبدلا من التشبيه أو التمثيل يلجأ إلى الاستعارة التي تجمع بين المجالات، ولعب الكلمات التي تزعزع الحدود، وبدل العلاقات السببية يلجأ إلى الرمز الذي يشي بالاشتراك...، وبدل الواقعية الساذجة التي ترضي العقل يلجأ إلى العجائبي الذي يوقظ السر، وبدل المبتذل الذي يطمئن يلجأ إلى الغريب الذي يتمتع هو وحده بالقيمة، وبدل الجاهز يلجأ إلى المرتجل، وبدل المحدد يؤثر الغامض، وبدل الزينة يؤثر التبرج، وبدل نصاعة القريب الحاضر يؤثر الغامض البعيد، وانفلات الذكريات»[28].

وما يؤكد حجاجية النص الشعري في نظر القراجني رأيه في أنّ الأخيلة ركيزة أساسية في الأقاويل الشعرية، إذ تعدّ من الأساسيات التي يتم بها بناء الكلام الذي يؤثر في النّفس، ويذعنها، فالكلام الذي يُبنى على التّخييل ينفعل له المتلقي نفسيًا وعقليًا، ومنه تتم الاستمالة العاطفية والإذعان العقلي، فيقول القرطاجني نقلًا عن ابن سينا في المخيل: «هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط لأمور، أو تنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالًا نفسيًا غير فكري»،[29] ويحصل ذلك بأن: «تتمثل للمتلقي من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة ينفعل لتخيلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها ،انفعالًا-من غير روية – إلى جهة من الانبساط أو الانقباض»[30]. ففي قوله هذا دلالة على أنّ الشعر قوامه الخيال، والكلام المخيل يسيطر على نفس المتلقي فيجعلها تذعن له وتنفعل معه من غير تردد، وفي كلامه هذا دليل على أنّ التخييل والتصوير يعد آلية من آليات الإقناع، وهذا ما يؤكده أوليفي ر وبول في مقاله الصورة والحجة حيث قال: « نعم الصورة تسهل الحجاج، نعم إنّها تشارك في الحجاج، وتكاد الوظيفتان تكونان متلازمتين على الدوام، وهذا التلازم هو في العمق جوهر البلاغة »[31].

وأما من حيث استعمال المعاني في الشعر فيرى حازم القرطاجني أنّ « التّصرف بالمعاني لا يخلو من أن يكون مثبتًا لشيءٍ أو مبطلًا أو مسويًا بين شيئين أو مباينًا بينهما أو مرجحًا أو مشككاً»[32] وهذا يعني أنّ استعمال المعاني يكون بدافع حجاجي، وما يؤيد رأيه هذا ما يراه صاحبا نظرية البلاغة الجديدة أنّه: «ما من محاجة إلا والباعث عليها وجود شك في مدى صحة فكرة ما، إنّ المحاجة تفترض أنّ هنالك فكرة ما ينبغي تدقيقها والتشديد

عليها وبدون ذلك التدقيق والتشديد تبقى غامضة وغير واضحة بما فيه الكفاية فلا يمكن فرضها على المتلقي »[33] ولا ريب في أن هذه الفرضيات التي جاء بها هي من صميم النظرية الحجاجية .

وبالتالي كان له السبق في منح الشعر الصفة الحجاجية، والبعد الإقناعي من خلال مزاوجته بين الامتاع والإقناع.

2-3- استراتيجية الإقناع وآلياتها في فكر حازم:

استراتيجية الإقناع هي استراتيجية خطابية تختلف أشكالها باختلاف العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، وتتنوع آلياتها بتنوع الحقول التي يمارس فيها استراتيجيته، كالحقل العلمي أو الاجتماعي، أو السياسي بغية التأثير.[34] وتبنى استراتيجية الإقناع على نوعين من الآليات:

3-2-1-**آليات غير لغوية:** وتتمثل في الأدلة المادية، أو ما يصاحب عملية التلفظ من هيئة المرسل وإشاراته، وقدرته على استمالة المرسل إليه[35]، وهذا النوع من الآليات أشار إليه حازم في حديثه عن التمويهات والاستدراجات، فرأى أنّ: «التمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالته المخاطَب واستلطافه بتزكيته وتقريظه أو باطبّائه إيّاه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولاً عند الحكم وكلام خصمه غير مقبول»[36]، فقد ركز في عملية الإقناع على محوري الخطاب، المتكلم والمخاطَب ودورهما في بناء الخطاب الحجاجي، ثمّ بين دور هيئة المتكلم وقدرته الخطابية في إقناع الخصم والتأثير فيه أو مغالطته، من خلال حديثه عن الأقاويل الكاذبة والمغالطة بتمويهات فيها: «محل الكذب من القياس عن السامع، أو باغتراره إيّاه ببناء القياس على مقدّمات توهم أنّها صادقة لأشباهها بما يكون صدقا، أو بترتيبه على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهه بالصحيح، أو بوجود الأمرين معاً في القياس، أعني أن يقع فيه الخلل من جهتي المادة والترتيب معاً، أو بإلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب وإن كان حيّز الوضوح أقرب منه إلى حيّز الخفاء بضروب من الإبداعات والتعجبات تشغل النفس عن ملاحظة محل الكذب والخلل الواقع في القياس من جهة مادّة أو جهة ترتيب أو من جهة المادة والترتيب معاً»[37]. ففي حديثه هذا يتحدث عن الملكة الإقناعية لدى المتكلم والمتمثلة في أسلوبه وملكته البلاغية، وقدرته على توظيف الحجج وترتيبها، ومعرفته بالمتلقي، والتي تكسبه قوة الإقناع .

3-2-2-الآليات اللغوية فمنها الاستدلال الحجاجي

3-2-2-1-آليات الاستدلال الحجاجي المنطقية وتجليها في فكر حازم:

يُعدّ الاستدلال محور النظريات المنطقية، إذ لا يمكن للمنطق أن يبنى على غير الاستدلال.

فالاستدلال من منظورهم هو: «تلك العملية العقلية التي تستنبط بواسطتها قضية من قضية أخرى أو أكثر، وتستنبط القضية المستنبطة (نتيجة الاستدلال)بطريقة معينة بالقضايا التي تم استنباطها منها»[38]

أمّا عند البلاغيين فقد ميزوا بين الاستدلال أو القياس المبني على "الحد"(المنطقي)، وبين الاستدلال المبني على أسس بيانية. ومنه: فالاستدلال البياني هو ما يشكل دليلا أو أدلة، بمعنى البينة والحجة، كمعايير يحصل بها التبيين أو إظهار الحق وصدق الخبر.[39]

وقد أشار القرطاجني في حديثه عن المقاييس في الأقاويل الشعرية والخطابية إلى بعض الآليات الاستدلالية الحجاجية المنطقية منها:

3-2-2-1-2-القياس المنطقي:

وهو «انتقال الفكر بصدق قضيتين إلى الحكم بصدق قضية ثالثة لازمة عنها، وهو انتقال من كلي يقيني إلى جزء ينطوي تحته، حيث تكون المقدمة الكبرى فالمقدمة الصغرى، ثمّ النتيجة»،[40] وهذا ما أورده في حديثه عن القياس فعده: « قول مؤلف من مقدمات وقضايا إذا كانت مسلمة ورتبت الترتيب الذي يجب في القياس الصحيح لزم عن ذلك القول المرتب قول آخر يسمى نتيجة»،[41] فقد عرف القياس (الاستدلالي)من المنظور المنطقي بحكم تأثره بأرسطو، إلا أنّه ومن خلال دراسته للشعر أشار إلى الاستدلال الحجاجي إذ رأى بأنّ هذه القياسات لا ترد «في الأقاويل الشعرية والخطابية المقصود بها البلاغة إلا محذوفة إحدى المقدمتين أو النتيجة في الحمليات، ومحذوفة الاستثناءات والنتائج في الشرطيات لأن القياس كلام تلازمت فيه القضايا، فصار مسئما بطوله مع ما يقع فيه من تكرار الأسوار والحد الأوسط وأجزاء النتيجة، فلما كان القول القياسي قد لزمه الطول والتكرار لم يكن لهم بد فيها وقصدوا به البلاغة من كلامهم، من أن يعدلوا مقداره ويحيطوا تكراره، فإن الكلام إذا خف واعتدل حسن موقعه من النفس، وإذا طال وثقل اشتدت كراهة النفس له»[42] فهو يرى أن الشعر والخطابة هي خطابات طبيعية، لا يتعامل معها كالخطاب الصوري، وهذا ما رآه أوزفالد ديكرو كون الخطاب الطبيعي مختلف عن الأنساق الصورية الصناعية، لا يصرح بكل مقدماته المنطقية، فعوض أن تكون موضوعاته التي يعبر عنها محددة تحديدا نهائيا كالبراهين الرياضية، تتحدد شيئا فشيئا مع تطور الخطاب.[43]

فقد أشار القرطاجني إلى نوعي القياس، "الحملي" و"الشرطي"، ومن خلال توضيحه لمواضع استخدام هذه الأقيسة، وطريقة بنائها أشار إلى "قياس الضمير" الذي طويت بعض قضاياه، وما ينتج عنه من "الضمائر الحملية " و"الضمائر الشرطية"[44]، فهو يؤكد على دور الضمائر الحملية والضمائر الشرطية التي حذفت منها بعض قضاياها في عملية الإقناع. كما أنّه أشار إلى بعض التقنيات والروابط الاستدلالية، وهذا ما يراه بيرلمان وبلانشيه في «أنّ نظرية الاستدلال يجب أن يكون موضوعها مجموعة من التقنيات المقولية، التي تمكن من البرهنة على وسائل الإقناع بمختلف التقديرات التصورية التي يقتضيها الخطاب»[45]

وقد نبه إلى أنه «قد يكون اقتضاء ما أبقى من القياس لما أميط عنه اقتضاء صحيحًا، وقد يكون غير مقتض له في الحقيقة ويظهر في بادئ الأمر أنه مقتض له على الصحة، وأكثر ما يكون في :

3-2-2-1-2-القياس الاستثنائي الشرطي:[46]

حيث مثل لذلك بقول امرئ القيس:(الطويل)

وإنْ كُنْت قد ساءَتْك منّي خليقةٌ *** فَسُلّي ثيابي من ثيابك تَنْسَــل

ثم علق عليه بقوله: «ففي قوة هذا الكلام، على ما يترامى إلى غرض القول، أن يكون الاستثناء نقيض المقدم والنتيجة نقيض التالي، أي لكنك لم تسؤك مني خليقة فيتوهم أنه منتج: فلا تسلي ثيابي من ثيابك، وهذا استثناء وإنتاج غير صحيحين. وإنما يستعمل هذا في الخطابة على جهة الاقناع»[47] بل رأى أنّ النتيجة الشرطية المتصلة تصح إذا «استثني فيها عين المقدّم (القضية التي تلي حرف الشرط)، فأنتج عين التالي(القضية التي تكون جوابا للشرط)، أو استثني نقيض التالي فأنتج نقيض المقدّم»[48].

فمن خلال هذا التعليق والتطبيق يتبين لنا أنّ حازمًا قد تناول القياس الشرطي المضمر المتصل، الذي تعدّه النظرية الحجاجية عامل من عوامل الحجاج، وهو من آليات الاستدلال الحجاجي.

3-2-2-1-3- الاستدلال بالتمثيل :

لقد عَدّت الدراسات الغربية الحديثة "التمثيل"Analogie" آلية من آليات الاستدلال القوية، وذلك من خلال دفعه للعلاقة الحجاجية، إذ يرى بيرمان أن التمثيل: «هو طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما، وإنّما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة»[49]، وهو مارآه حازم في دراسته للشعر فيقول: «وهو أكثر ما يستدل به الشعر، فهو حكم على جزئي بحكم موجود في جزئي آخر يماثله» و مثل لذلك بقول حبيب:(البسيط)

أخرجتمـــــوه بكـره من سجيته * ** والنار قد تنتضى من ناظر السلم[50]

فرأى أنّ الأقاويل القياسية المبنية على التخييل والإقناع تكون «خطابة بما يكون فيها من إقناع، وشعرية بكونها متلبسة بالمحاكاة والخيالات» [51] ومنه يظهر لنا أنّه جعل الاستدلال بالتمثيل في الشعر آلية من آليات الاستدلال الحجاجي، التي بها ينتقل الشعر من الامتاع إلى الإقناع.

وبذلك يكون له السبق في الإشارة للاستدلال بالتمثيل، وخاصة في الخطاب الشعري، وذلك دون الاهتمام بالتنظير لهذه الآراء.

خاتمة:

ومن أهم النتائج التي وصلنا إليها في نهاية البحث:

- أن القرطاجني يُعدّ حلقة وصل بين النّقد الإغريقي والنّقد الحديث، وما انبثق عنه من نظريات حجاجية، وذلك بما أنتجه من آراء وقوانين تخدم الشعرية العربية، وتُعدّ أسسًا للحجاج والإقناع في البلاغة العربية.
- أنّه حدد البنية الأساسية للشعر والخطابة، فجعل الشعر بنيته التخييل، والخطابة بنيتها الإقناع، وجعل نقطة التقاطع بينهما هي مادة المعاني، والتي محورها الرئيسي هو التأثير في النفوس، ودفعها للاعتقاد والفعل.
- أنّه ركز على الوظيفة التأثيرية للإنتاج الأدبي، فكان له السبق في الإشارة إلى حجاجية الشعر ومنه إلى حجاجية الخطابات المختلفة.
- أنّه جعل من آليات البيان آليات حجاجية، يتحقق بها الإقناع والاقتنا، وأشار إلى الاستدلال الحجاجي وما يترتب عنه في عملية التأثير.
- أنّه أشار إلى بعض ما احتوته نظرية السلالم الحجاجية، من ترتيب للأقوال والحجج، ومن علاقات وعوامل تربط بين درجات السلم.
- أنه من خلال حديثه عن أقسام الأدب وغاياتها أشار إلى حقل مفاهيمي للحجاج، والاحتجاج، الاستدلال والقياس والتمويهات والاستدراجات، ومنه قد أشار إلى بعض مفاهيم الحجاج وآلياته.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج2، (د ط)، 1979م، مادة (حج).
2- أرسطو طاليس، فن الخطابة ، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، (ط1)، 2008.

3- آمنة بلعلي، الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 89، محرم1424هـ، مارس2003م.
4- أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، (ط1)، 2010م.
5- أبوبكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الأحمدية،(ط1)، 2006.
6- جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، (ط1)، 2014.
7- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط3)، 1986م.
8- حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج30، ع1،07-09-2001.
9- خلود بنت عبد اللطيف، البعد الحجاجي في قصيدة الدمعة الخرساء لإيليا أبي ماضي، مجلة العلوم العربية والإنسانية، مركز النشر العلمي والترجمة جامعة القصيم، السعودية، مج10، ع1،(2016/10).
10- رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج40، ع2،(10 -12-2011).
11- شكري مبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم تحت إشراف: حمادي صمود، منوبة، تونس، (د.ط)، (د.ت)
12- صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، (ط1)، 2008.
13- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (ط3)، 2007م.
14- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (ط4)، 2016م.
15- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006.
16- عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية، كنوز المعرفة،عمان، (ط1)، 2016م
17- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، (ط1)، 2001.
18- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، تونس، (ط1)، 2011م.
19- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، (ط1)، 2004.
20- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تح : إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط1)، 1405هـ.
21- عصام زكريا جميل، المنطق والتفكير الناقد، دار المسيرة، عمان، (ط1)، 2012.
22- علي سلمان، النظرية الحجاجية في البلاغة العربية تكاد تكون مفقودة، مقال في صحيفة الوسط البحرينية، العدد 2750مارس 2010م.
23- لزهر كرشو ، تقانة التحليل الحجاجي للخطاب، مطبعة الرمال، الوادي، (دط)، 2020م.
24- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق ، المغرب، (ط2)، 2012 .
25- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، أفريقيا الشروق، المغرب، 1999.
26- محمد الولي، مدخل إلى الحجاج .. أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج40، ع2، (10-12)، 2011.
27- ابن منظور، لسان العرب، دار صابر، بيروت، مج2، (ط1)، 1997.

هوامش وإحالات المقال

1 ابن منظور، لسان العرب، دار صابر، بيروت، مج2، (ط1)، 1997، ص27.

2 علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، تح : إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط1)، 1405هـ، ص112.

3 أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج2، (د ط)، 1979م، مادة (حج)، ص30.

4طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (ط4)، 2016م، ص226.

5 المرجع نفسه، ص ن

6 عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر،توس،(ط1)، 2011،ص13

7 شكري مبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليومن تحت إشراف: حمادي صمود، منوبة، تونس، (د.ط)، (د.ت)، ص360

8 أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، (ط1)، 2010م، ص 18-19.

9 المرجع نفسه، ص 18-19.

10ينظر: أرسطو طاليس، فن الخطابة ، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، (ط1)، 2008 ، ص9-244

11علي سلمان، النظرية الحجاجية في البلاغة العربية تكاد تكون مفقودة، مقال في صحيفة الوسط البحرينية، العدد 2750مارس 2010م، ص15

12 ينظر عبد الله صولة،الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، (ط1)، 2001، ص18

13 ينظر جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، (ط1)، 2014، ص26

14 ينظر عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر،توس،(ط1)، 2011، ص11-12

15 ينظر عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ص،24

16 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص23

17ينظر: أبوبكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الأحمدية،(ط1)، 2006، ص8

18ينظر صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، (ط1)، 2008، ص21

19صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، ص21

20لزهر كرشو، تقانة التحليل الحجاجي للخطاب، مطبعة الرمال، الوادي، الجزائر، (ط1)، 2020، ص41-42

21 ينظر حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط3)، 1986م، ص62-69.

22 محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، أفريقيا الشروق، المغرب، 1999، ص498.

23 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، ص71

24 ينظر: خلود عبد اللطيف، البعد الحجاجي في قصيدة الدمعة الخرساء لإيليا أبي ماضي، مجلة العلوم العربية والإنسانية، مركز النشر العلمي والترجمة جامعة القصيم، السعودية، مج10، ع1،(2016/10).ص300-328

25 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، ص 361.

26 محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، المغرب، (ط2)، 2012، ص 15

27 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، ص19

28 محمد الولي، مدخل إلى الحجاج .. أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج40، ع10،2-12-2011، ص19

29 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، ص86

30 المرجع نفسه، ص89

31 عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية، كنوز المعرفة،عمان، (ط1)، 2016م، ص33

32 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، ص13

33 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص16

34 ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، (ط1) ، 2004، ص444

35 ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص454

36 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، ص 64 .

37 المرجع نفسه، ص 64.

38 عصام زكريا جميل، المنطق والتفكير الناقد، دار المسيرة، عمان، (ط1)، 2012، ص91

39 ينظر حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج30، ع1،07-09-2001، ص 124

40 بلعلي آمنة، الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 89، محرم1424هـ، مارس2003م،ص 228.

41 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، المنهاج، ص66.

42 المرجع نفسه، ص65.

43 ينظر رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج40، ع10،2-12-2011، ص80

44 ينظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (ط4)، 2016م، ص157.

45رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص80

46 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، المنهاج ، ص 66.

47 المرجع نفسه، ص66.

48 المرجع نفسه، ص 66.

49 عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص97

50 حازم القرطاجني، المرجع نفسه، ص67.

51 المرجع نفسه، ص 67.